

محمد أبو رمان*

”السلفية الجهادية”: داعش والنصرة

من إدارة التوحش إلى فقه الدماء

هذه المقالة، التي تستخلص من مقالات سابقة، تبحث في الجذور النظرية للسلفية الجهادية، وخصوصاً تنظيميها الجديدين ”الدولة الإسلامية”، أو ”داعش” كما يسميها ناشطون وإعلاميون، المنشقة عن عصا طاعة تنظيم القاعدة، وجبهة النصر المعمدة من طرف القاعدة كفرع لها في سورية. ويعيد الكاتب الجذور الفكرية لتنظيم الدولة الإسلامية إلى كتابين هما: ”إدارة التوحش: أخطر مرحلة تمر بها الأمة” لأبوبكر ناجي، و”أعلام السنة المنشورة في معالم الطائفة المنصورة” المعروف بـ ”مسائل من فقه الجهاد”، أو ”فقه الدماء” وهو الاسم الأكثر شهرة للكتاب، لأبو عبد الله المهاجر. أما الجذور الفكرية لتنظيم جبهة النصر، فينسبها إلى كتب أبو مصعب السوري: ”ملاحظات حول التجربة الجهادية في سورية”، و”أهل الشام في مواجهة النصيرية والصليبية واليهود”، وكتابه الأهم ”دعوة المقاومة الإسلامية العالمية”، الذي يؤسس لبناء ”سرايا المقاومة الإسلامية”.

الجهادية. فكل منها يؤمن بإقامة الدولة الإسلامية، وتكفير الحكومات العربية التي لا تطبق الشريعة الإسلامية، وبمبدأ الولاء والبراء، وبالقتال كاستراتيجية للتغيير، وبالمواجهة مع الولايات المتحدة الأميركية والغرب، وبالعقائد الإلهية المستمدة من الأدبيات السلفية التاريخية المعروفة، وبرفض الطريق الديمقراطي، وبخطأ مسار الجماعات الإسلامية الأخرى، مثل جماعة الإخوان المسلمين، والفروع السلفية التي لا

على الرغم من اتساع نطاق الخلافات القائمة في أوساط السلفية الجهادية، وما نتج منها من صراع بين تياراتها الرئيسية (تنظيم الدولة الإسلامية من جهة، وكل من القاعدة وجبهة النصر من جهة أخرى)، فإنها لم تطح بالمفاهيم المؤسسة للسلفية

* مدير وحدة الدراسات السياسية في مركز الدراسات الاستراتيجية في الجامعة الأردنية.

الأميركية فشلت في بناء ديمقراطية مستقرة موالية، وفي الحدّ من النفوذ الإيراني، وأدت بدلاً من ذلك إلى تفتيت المجتمع وتدمير الدولة، بل ساهمت في ولادة جيل جديد من الجهاديين الأشدّ خطراً، كما هيأت ملاذات آمنة لتنظيم "القاعدة"، بحيث أصبح العراق مختبراً لولادة أيديولوجيا جهادية على أسس هوياتية سنّية أكثر توحشاً وأشدّ فتكاً وأوسع انتشاراً.

يُعتبر تنظيم الدولة الإسلامية امتداداً للتنظيم الذي أسسه أبو مصعب الزرقاوي غداة الاحتلال الأميركي في سنة ٢٠٠٣، قبل أن يعلن مبايعته أسامة بن لادن، زعيم تنظيم القاعدة في سنة ٢٠٠٤، ثم مقتله قبل أن يتحول التنظيم إلى اسم "الدولة الإسلامية"، ثم إعلان تأسيس الدولة الإسلامية في العراق والشام، وأخيراً الخلافة الإسلامية في سنة ٢٠١٤.

اعتمد أبو مصعب الزرقاوي، منذ البداية، في بناء شبكته وتنظيمه، أيديولوجياً وفكرياً وفقهياً، على أسس تتجاوز الجهاد التضامني ومنطق حروب "النكاية"، وهي الاستراتيجيات التي حكمت التجربة الأفغانية، ثم أيديولوجيا القاعدة في مرحلتها الجديدة. وبدلاً من ذلك تأسست رؤية الزرقاوي الأيديولوجية على إدارة التوحش وتحقيق التمكين، ولذلك توجهت اختياراته الاستراتيجية نحو أطروحات أبي بكر ناجي في كتابه "إدارة التوحش: أخطر مرحلة تمر بها الأمة"، وهي المرحلة الجهادية الانتقالية التي تفصل بين بناء "شوكة النكاية" والوصول إلى "شوكة التمكين".

أمّا على الصعيد الفقهي فإن الزرقاوي اعتمد على مرجعية شيخه أبي عبد الله المهاجر، الذي كان له الأثر المباشر في بناء

تتبني العمل المسلح، مثل السلفية التقليدية والحركية.

غير أن هذه المساحة الأيديولوجية المشتركة لم تكن كفيلة بإزالة الفوارق والخلافات التي بدأت تنمو وتتصاعد بصورة واضحة مؤخراً حتى طغت على المناخ السلفي الجهادي بأسره، وأدت إلى تفكيك عرى التيار السلفي الجهادي وانقسامه، فوصلت الأمور إلى حدود الاقتتال والصدام الأيديولوجي والعسكري، وأخيراً التكفير والاقتتال في سورية بين تنظيم الدولة الإسلامية وجبهة النصرة التي تحظى بدعم قيادة تنظيم القاعدة المركزية. وثمة فرضيتان رئيسيتان في تفسير الخلافات القائمة: الأولى ترى أنها لا تتجاوز الجانب التكتيكي أو الصراع على النفوذ والقوة والقيادة، وربما بعض القضايا الإجرائية، والثانية تذهب إلى أن هنالك جانباً أيديولوجياً مهماً يتمركز في بؤرة الخلاف الراهن.

وسنناقش هاتين الفرضيتين، في هذه المقالة، عبر سبر غور الخلافات بين تيارَي داعش والنصرة، وجذورها الفكرية والتاريخية وأبعادها السياسية والواقعية، مع تحليل المصادر الفكرية المؤثرة في كلا التجريبتين، وصولاً إلى استقصاء حجم الخلاف الأيديولوجي ومساحته وتأثيره في تفكير كل منهما وسلوكه.

I - البناء الأيديولوجي لتنظيم "الدولة الإسلامية"

بعد مرور أكثر من عشرة أعوام على الاحتلال الأميركي للعراق، وقرابة عامين على انسحاب القوات الأميركية من العراق في سنة ٢٠١١، تبين أن السياسات

التوحش ستكون تلك المرحلة - بإذن الله - هي المعبر لدولة الإسلام المنتظرة منذ سقوط الخلافة، وإذا أخفقنا - أعاذنا الله من ذلك - لا يعني ذلك انتهاء الأمر، ولكن هذا الإخفاق سيؤدي لمزيد من التوحش...!! ولا يعني هذا المزيد من التوحش الذي قد ينتج عن الإخفاق أنه أسوأ مما هو عليه الوضع الآن، أو من قبل في العقد السابق [التسعينيات] وما قبله من العقود، بل إن أفحش درجات التوحش هي أخف من الاستقرار تحت نظام الكفر بدرجات.³

ويدرس ناجي في كتابه، تجارب تاريخية عديدة شهدت إدارة التوحش، ويؤكد أن الدولة الحديثة يمكن الإطاحة بها نظرياً عن طريق قوتين: "الشعوب"، و"الجوش"، غير أنهما باتتا مدجنتين بوسائل عديدة من الإلهاء والشراء والتلاعب، كما أن الدولة الوطنية تخضع لقوى دولية ونظام عالمي يحرص على الحفاظ على بقائها وإدامة الهيمنة والسيطرة، ومع ذلك فإن المجتمع ينتج طائفة لا تخضع لاشتراطات الواقع، وتسعى للتغيير، وتتوافر على فهم طبائع الدولة والمجتمع والسنن الكونية. وعلى الرغم من تشديده على الإمكانيات الكبيرة للدول المهيمنة، فإنه يؤكد أنها تقوم على "وهم القوة" الذي تسنده آلة إعلامية جبارة كاذبة. وبحسب ناجي: "صحيح أن هذه القوة جبارة وأنها تستعين بقوة أنظمة محلية من الوكلاء الذين يحكمون العالم الإسلامي، إلا إنها رغم كل ذلك لا تكفي، لذلك لجأ القطبان [أميركا وروسيا] إلى عمل هالة إعلامية كاذبة تصوّر هذه القوى أنها لا تقهر، وأنها تحيط بالكون وتستطيع أن تصل إلى كل أرض وكل سماء وكأنها تحوز قوة خالق الخلق."⁴

عقيدة الزرقاوي القتالية ونهجه الفقهي، وخصوصاً المسائل المتعلقة بأولوية قتال "العدو القريب" المتمثل في المرتدين من الأنظمة العربية والإسلامية الحاكمة، وكذلك مسألة تكفير الشيعة عامة. فأغلبية خيارات الزرقاوي الفقهية المتشددة والخاصة بالعمليات الانتحارية، ومسألة التترس، وعمليات الاختطاف والاعتقال، وقطع الرؤوس، وتكتيكات العنف والرعب، كان قد تلقاها من شيخه أبو عبد الله المهاجر.¹ لنبدأ أولاً بكتاب أبي بكر ناجي.²

فهذا الكتاب يؤسس لبناء عقيدة قتالية، واستراتيجية عملية للطائفة الجهادية تقوم على أسس دينية إسلامية تستعير النموذج السلطاني الذي يستند إلى فقه الشوكة والغلبة والقوة، وإلى التراث الغربي الثوري الحدائثي ومنهج الحروب الكلاسيكية الحديثة وتكتيكات حرب العصابات، وكلتاها تقوم على أسس موضوعية مادية تستند إلى "سنن كونية" مشتركة.

ما يريد أن يصل إليه ناجي من تلك المقدمات هو القول إن بناء الدولة مسألة كونية إنسانية، كما هي شرعية دينية، أي أن هنالك شروطاً مادية وواقعية تمثل العامل الأكثر أهمية في بناء الدولة وقوتها وضعفها، ولا يجوز إهمالها، بل يجب البحث عن السنن والقوانين الاجتماعية الخاصة بها.

ويستعير ناجي مفهوم "التوحش" من الفكر الخلدوني، وهو يكافئ مفهوم "الفوضى"، ويؤكد ناجي حتمية مرحلة التوحش والفوضى ويبحث في طرائق استثمارها، كي تفضي إلى تحقق "الدولة الإسلامية وقيامها". ف"إدارة التوحش هي المرحلة القادمة التي ستمر بها الأمة، وتعدّ أخطر مرحلة، فإذا نجحنا في إدارة هذا

"في الأصل: الباب الثاني من رسالة أخرى كبيرة بعنوان الجامع في فقه الجهاد، وهو الباب الخاص بـ أحكام الدماء وما يتعلق بها."^٧ ويعرض أبواب الكتاب، نجد تطبيقاته واضحة ميدانياً، كما أن روح الكتاب تسري في جميع خطابات زعماء تنظيم الدولة الإسلامية بدءاً بالزرقاوي، ومروراً بأبي عمر البغدادي، ووصولاً إلى أبي بكر البغدادي، إذ يؤسس الكتاب لنهج التنظيم وخياراته الفقهية.

ولم تكن الأيديولوجيا الدينية التي وضعها الناجي والمهاجر بشقيها النظري والعملية مجرد إرشادات وتوجيهات عامة، وإنما أصبحت تشكل دليلاً ومنهجاً لحركة تنظيم الدولة الإسلامية وسلوكه العنيف، وقد اتخذت بعداً تطبيقياً في بيئة مثالية للعمل الجهادي في العراق تحققت فيها شروط التوحش والفوضى من خلال الاحتلال الأميركي الذي عمل على تفكيك بنى الدولة، وتفطيت بنية المجتمع على أسس هوياتية صريحة إثنية عرقية، عربية - كردية، ودينية مذهبية، شيعية - سنية بصورة رئيسية.

واجتمعت الشروط والأسباب والظروف الموضوعية من الاحتلال الخارجي والاستبداد الداخلي والانقسام البنيوي، الأمر الذي استثمره الزرقاوي وخلفاؤه في تطوير أيديولوجيا جهادية قتالية على أساس ديني هوياتي مذهبي في إطار "حاضنة اجتماعية" داخل المجتمع السنّي، عانت القمع والاستبداد والاستبعاد المركب. وقد اكتسبت أطروحة الزرقاوي قوة متزايدة وزخماً حركياً، علاوة على قدرات عسكرية وأمنية أكبر، من خلال الضباط السابقين في الجيش العراقي، وكذلك من خبرة المتطوعين العرب في ميادين القتال.

ولضمان نجاح إدارة التوحش، فإنه لا بد من تحقيق مهمات عديدة، هي: نشر الأمن الداخلي؛ توفير الطعام والعلاج؛ تأمين منطقة التوحش من غارات الأعداء؛ إقامة القضاء الشرعي بين الناس الذين يعيشون في مناطق التوحش؛ رفع المستوى الإيماني؛ رفع الكفاءة القتالية في أثناء تدريب شباب منطقة التوحش، وإنشاء المجتمع المقاتل بكل فئاته وأفراده عن طريق التوعية بأهمية ذلك؛ العمل على بث العلم الشرعي والدنيوي؛ بث العيون واستكمال بناء إنشاء جهاز الاستخبارات المصغر؛ تأليف قلوب أهل الدنيا بشيء من المال والدنيا بضابط شرعي وقواعد معلنة بين أفراد الإدارة على الأقل؛ ردع المنافقين بالحجة وغيرها وإجبارهم على كبت وكنم نفاقهم وعدم إعلان آرائهم المثبطة، ثم مراعاة المطاعين منهم حتى يُكف شرهم؛ الترقى حتى يتحقق إمكان التوسع والقدرة على الإغارة على الأعداء لردعهم وغنم أموالهم وإبقائهم في توجس دائم وحاجة إلى المودعة؛ إقامة التحالفات مع مَنْ يجوز التحالف معه ممّن لم يعط الإدارة الولاء الكامل.^٨

أمّا كتاب "مسائل من فقه الجهاد" للمهاجر فهو الأساس الفقهي المعتمد، ودليل العمل الإرشادي لتنظيم الدولة الإسلامية، وله تسمية أخرى رائجة لدى الجهاديين هي: "فقه الدماء". ويستند المهاجر في مرجعيته إلى الكتاب والسنة والتراث الفقهي السنّي التاريخي بمذاهبه الفقهية الأربعة (الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي) عامة، إلاّ إنه يعتمد بصورة خاصة على المذهب الحنبلي، وخصوصاً اختيارات ابن تيمية وابن القيم والمدرسة السلفية الوهابية الحنبلية. ويشير المهاجر في مقدمته إلى أن الكتاب

II - أيديولوجيا جبهة النصرَة:

مراجعات القاعدة و"التكيف" الأيديولوجي

تستند أيديولوجيا "جبهة النصرَة" إلى مصادر سلفية جهادية متنوعة، غير أنها تفتقر إلى التجانس والتماسك نظراً إلى حداثة نشأتها عقب انطلاق الثورة السورية في آذار / مارس ٢٠١١، وإعلان تأسيسها في كانون الثاني / يناير ٢٠١٢. فقد تكونت من خليط هجين من المقاتلين بدعم وإسناد الفرع العراقي، وبالتالي فإن السلطة العلمية المرجعية لجبهة النصرَة تستند أساساً إلى السلفية الحركية التي نشأت من رحم جماعة الإخوان المسلمين، وتتبع المدرسة الجهادية التي وضع أصولها النظرية سيد قطب، وأخذ بها أيمن الظواهري زعيم جماعة الجهاد المصرية والقاعدة لاحقاً، وتبناها مروان حديد، مؤسس جماعة "الطليعة المقاتلة" في سورية، وبلور أطروحاتها عبد الله عزام الأب الروحي للأفغان العرب في أفغانستان، وطور مستنداتها أبو مصعب السوري في الشتات.

إذاً، ثمة روافد متعددة لأيديولوجيا النصرَة، ويعود خيطها الرئيسي إلى فكر السلفية الجهادية العام، وما مرّ به من تحولات وقفنا عليها في الفقرات السابقة، وصولاً إلى ما استقرت عليه مراجعات القاعدة المركزية، والتي كشفت عنها وثائق حصل عليها الأميركيون في مخبأ أسامة بن لادن لحظة مقتله، ونُشرت لاحقاً.

وتلك الوثائق المهمة تُفصح عن استياء قيادة القاعدة من مسار الفرع العراقي، خلال مرحلة أبي مصعب الزرقاوي، مروراً بإعلان قيام الدولة الإسلامية في العراق،

وفيها اعتراف واضح بجوانب الفشل لدى الشبكة في اجتذاب تأييد الشارع العربي عامة، وبارتكاب أخطاء جسيمة من جانب بعض الفروع، مثل التوسع في عمليات التتريس، الأمر الذي يؤدي إلى قتل مدنيين أبرياء، واستسهال التكفير.

وتصل تلك الوثائق - وهي عبارة عن رسائل متبادلة بين بن لادن وقيادات فكرية - إلى ضرورة تصحيح المسار، عبر الاندماج في المجتمعات العربية والمسلمة، حتى لو أدى الأمر إلى تغيير اسم القاعدة نفسه، وتبني عناوين أخرى، لتحسين الصورة، سياسياً وإعلامياً وشعبياً.^٧

وعززت حقبة الثورات الشعبية العربية أهمية هذه المراجعات وإخراجها إلى العلن، ونجد خلال المرحلة الأولى من عمر هذه الثورات مجموعة من المقالات والرسائل لقيادات في القاعدة تعكس حالة القلق لديها جزاءً خسارة الشارع العربي والإسلامي، وتُظهر محاولات من طرف هذه القيادات لما يمكن أن نسميه "تكيفاً أيديولوجياً"، يتم من خلاله تطوير خطاب السلفية الجهادية وحركاتها كي لا تصطدم بحركة الشعوب السلمية، لكن مع الإبقاء على "النواة الصلبة" في هذه الأيديولوجيا، والتي تقوم على مبدأ الحاكمية وتطبيق الشريعة الإسلامية، ومواجهة الولايات المتحدة الأميركية، لكن مع رد الاعتبار إلى الخيار السلمي في التحرك الشعبي من أجل تطبيق الشريعة الإسلامية.^٨

وانبثقت عن هذه المراجعات فكرة "أنصار الشريعة"، والتي اتخذت تطبيقات عملية في اليمن وتونس، ونجد صداها في اسم الجبهة نفسه وهو النصرَة، الذي يقوم على ضرورة الاندماج في الشعوب والاهتمام بالقضايا العامة، في مواجهة الاستبداد،

الثورة بذريعة محاربة "الإرهاب"، وعدم إثارة الولايات المتحدة، وتجنباً لإثارة الحاضنة الاجتماعية اللازمة لجلب مزيد من الأنصار. لكن أبا محمد الجولاني (أمير جبهة النصرة) اضطر إلى الكشف عن علاقته بالقاعدة بعد إعلان البغدادي إقامة الدولة الإسلامية في العراق والشام، كما يصرّح بذلك الظواهري قائلاً: "فوجئنا بالإعلان [يقصد إعلان الفرع العراقي في نيسان/أبريل ٢٠١٣ ضم جبهة النصرة] الذي وقرّ للنظام السوري ولأميركا فرصة كانوا يتمنونها"، فضلاً عن: "جعل عوام أهل الشام يتساءلون ما لهذه القاعدة تجلب الكوارث علينا؟ ألا يكفيننا بشار؟ هل يريدون أن يجلبوا علينا أميركا أيضاً؟"^{١٠}

وجدت قيادة النصرة صالحتها لتعزيز المنهج الجديد في كتب ورؤية أبي مصعب السوري، أحد منظري السلفية الجهادية العالمية، كما ذكرنا سابقاً، وقد طوّر رؤيته الخاصة استناداً إلى تراث السلفية الحركية الإخوانية، ممثلة في سيد قطب وعبدالله عزام، مروراً بمروان حديد، واتكأ على مفهوم "حرب المستضعفين"^{١١}.

وتعدّ كتابات أبي مصعب السوري السلطة المرجعية الأساسية لأبي محمد الجولاني مسؤول جبهة النصرة، وخصوصاً كتبه: "ملاحظات حول التجربة الجهادية في سورية"، و"أهل الشام في مواجهة النصيرية والصليبية واليهود"، وكتابه الأهم "دعوة المقاومة الإسلامية العالمية"، الذي يؤسس لبناء "سرايا المقاومة الإسلامية"، ومفهوم الجهاد الفردي (الذئاب المنفردة)، وتحويل الجهاد إلى مشروع أمة، من خلال إنشاء خلايا يجمع بينها الفكر والعقيدة والهدف من دون أن تكون في تنظيم يعتمد على هيكلية التنظيمات التقليدية.

وإقامة النظام الإسلامي، وتوجيه الخيار الثوري نحو الإسلامية، لكن مع البقاء خارج قبة البرلمان وحدود اللعبة السياسية.^٩

وتقوم فكرة أنصار الشريعة على التحول من العمل النخبوي النوعي ذي الطبيعة العسكرية المحضّة إلى العمل الشعبي الإعلامي والسلمي العام تحت شعار تطبيق الشريعة الإسلامية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو تحول نوعي وكبير مقارنة بالمراحل السابقة من تطور أيديولوجيا السلفية الجهادية التي آلت إلى عمل عسكري، والتحول في نهاية التسعينيات من قتال "العدو القريب" (الأنظمة العربية) إلى "العدو البعيد" (الولايات المتحدة الأميركية). وقد أصبح الآن هناك دمج في أبعاد الصراع، بين الإبقاء على مشروع "عولمة الجهاد" والصدام مع الولايات المتحدة الأميركية من جهة، والسعي لاستثمار موجة الحراك الثوري الشعبي للدفع نحو تطبيق الشريعة الإسلامية في الدول والمجتمعات التي تتخلص من الأنظمة العربية، من جهة أخرى.

ونجد، عبر متابعة سلوك النصرة واندماجها في المجتمع وبحثها عن الأنصار في المجتمع المحلي ومخرجات المراجعات القاعدية المركزية، أن هناك تماثلاً كبيراً، ولعل ذلك ما يفسّر حرص النصرة والقاعدة في البداية على عدم الإشارة إلى علاقة النصرة بالمركز أو الفرع العراقي تجنباً للأخطاء التي وقع فيها التنظيم في العراق، وتعمية على الأجهزة الاستخباراتية، ولتسهيل مسار العمل مع الفصائل المسلحة الأخرى وفق نهج "الأنصار".

فبحسب "النهج الجديد"، لا بد من الابتعاد عن إعلان الانتماء إلى القاعدة، في سبيل عدم إعطاء النظام السوري مبررات قمع

III - خاتمة

حظيت النصر - بعد بروز الخلافات والصدام مع تنظيم الدولة الإسلامية - بدعم كبير من قيادة القاعدة المركزية، وكبار منظري التيار السلفي الجهادي، فأصدر أبو محمد المقدسي رسالة بعنوان "ليس كمن ترضى بشقّ ابنها"^{١٢} وأبو قتادة الفلسطيني رسالة بعنوان "رسالة لأهل الجهاد في الشام"^{١٣} كما ظهرت مواقف وكلمات ورسائل عديدة مؤيدة لقرار الظواهري وصواب نهجه ونصرة "جبهة النصر" من أمثال الشيخ سليمان العلوان وإياد القنبي وغيرهما، الأمر الذي يشي بأن النصر أصبحت تمثل المرحلة الجديدة التي استقر عليها المسار العام لأيديولوجيا القاعدة والسلفية الجهادية.

لكن في الوقت نفسه، لم تعد النصر ولا القاعدة الجديدة تمثلان الخط الوحيد في الوسط الجهادي، إذ برز خط آخر هو أيديولوجيا الدولة الإسلامية، الذي يستقطب بدوره مجموعة من المنظرين ونسبة كبيرة من الجيل الجهادي الشاب الصاعد، ليس فقط في العراق وسورية، بل في مناطق متعددة أيضاً من العالمين العربي والإسلامي، كما رأينا سابقاً. فقد انحاز إلى قرار البغدادي وتنظيم الدولة عدد من مناصريهما من بعض جهاديي الجيل الثاني والثالث الأكثر نشاطاً في العالم الافتراضي، ومنهم: أبو سعد العاملي في رسالة "تنبيه الأنام لما في التفرقة من آثام وأهمية التوحد في دولة الإسلام"^{١٤} أبو الحسن الأزدي في رسالة "موجبات الانضمام للدولة الإسلامية في العراق والشام"^{١٥} أبو همام بكر بن عبد العزيز الأثري في كتابه "مدّ الأيادي لبيعة البغدادي"^{١٦} أبو المنذر

الشنقيطي في بيانه "نصرة لإعلان دولة الإسلام متى يفقهون معنى الطاعة"^{١٧}؛ أبو محمد الأزدي في كتابه "المعارضين لدولة المسلمين"^{١٨}؛ الشيخ عاني العلم في رسالته "ردّ الشبهات عن الدولة الإسلامية: شرعية الدولة وصحتها"^{١٩}؛ أبو يوسف البشير في رسالته "البيعة ثم البيعة ثم البيعة"^{٢٠}؛ أبو المنذر عمر مهدي زيدان في مقالات عديدة، وغيرهم.^{٢١}

من الملاحظ، إذناً، أن صعود تنظيم الدولة الإسلامية وامتداده وانتشاره إلى مناطق أخرى، بدأ يسحب البساط من تحت أقدام تنظيم القاعدة المركزي نفسه، بالتوازي مع اختراقه السريع لجيل الشباب في السلفية الجهادية، ودفع ببعض الباحثين والمراقبين إلى اعتبار التنظيم أو هذا النموذج بمثابة "الجيل الرابع" من أجيال القاعدة وفصيلتها الأيديولوجية والسياسية.

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أن هنالك تعانقاً وتناغماً كبيراً بين البناء الأيديولوجي وطبيعة التنظيم، فخلال الفقرات السابقة ركزنا على الفوارق الأيديولوجية بين تنظيم الدولة من جهة وجبهة النصر من جهة أخرى، إلا إن من المهم التذكير أيضاً، بأن الخلاف الأيديولوجي لا ينبت من فراغ ولا يأتي منفصلاً عن شروطه الموضوعية، فتنظيم الدولة نشأ في بيئة مسكونة بالصراع الهوياتي الطائفي والفوضي (العراق)، وتماهى معها وجعل موضوع الهوية السنية اهتمامه الرئيسي والأولي، الأمر الذي عزز قدرته على التجنيد والدعاية والصعود. وقد استفاد من تحوّل طبيعة الصراع في سورية والحالة اللبنانية، كي يتمدد في ثلاثة مجتمعات عربية تعاني فيها الشريحة السنية الكبرى قلقاً كبيراً يطاول شعورها

وهو، أيضاً، مستثمر مخضرم في الفوضى الطاحنة في ليبيا، وفي الفراغ السياسي ونمو الجماعات المرتبطة بالسلفية الجهادية هناك، وفي صحراء سيناء، وفي اليمن مع سيطرة الحوثيين على صنعاء، وفي الأزمة البحرينية والأزمات الداخلية العربية، فهناك اليوم حالة جديدة متنامية من تفكيك المجتمعات وانهيار السلطة الأخلاقية للدولة، والعودة إلى الأشكال الأولية من التعبير عن الهوية.

مثل هذه المناخات هي التي تخلق جاذبية لنموذج الدولة الإسلامية، وقابلية لاستنساخه وتطبيقه في العديد من المجتمعات، ما دامت المسارات البديلة مغلقة إلى الآن. وخطورة هذا التنظيم لا تكمن في أنه اجتاز الحدود وأقام كيانياً عابراً لها، ومتوحشاً في سلوكه مع الخصوم، وإنما أنه أصبح نموذجاً للوعي الشقي السلبي وحالة المجتمعات العربية والمسلمة!

ثانياً: لقد أصبح هذا التنظيم "نموذجاً"، ونحن رأينا كيف سعت جماعات أخرى في ليبيا واليمن لاستنساخه، فما دامت الأزمة السياسية السنية لم تُحل، والأزمة السلطوية العربية قائمة، فإن هذا التيار والتيارات الأخرى، أكانا شيعيين أم عرقيين أم غيرهما، سيجدان فرصة للنمو والصعود والتكيف مع الضغوط والظروف المتنوعة، وإذا تراجعاً في مكان فإنهما سينتشران في مكان آخر.

ففي الحرب الأفغانية (٢٠٠٢) استطاعت الولايات المتحدة الأميركية مع حلفائها القضاء على حكم حركة طالبان الأفغانية، وتدمير مركز القاعدة وتشيتيت قيادته، لكن المشكلة عادت إلى الظهور سريعاً بعد أعوام قليلة، واليوم تعترف أوساط أميركية متعددة بأن العملية السياسية لم تستطع

بالتهديد على أمنها وهويتها ووجودها في مواجهة النفوذ الإيراني الإقليمي مع غياب أي حضور عربي - سنّي يوازي هذا النفوذ الإيراني، فجاء تنظيم الدولة الإسلامية لملء هذا الفراغ الكبير معتمداً منظومة أيديولوجية تحاكي القلق السني العميق، وهو ما خلق الفرق الشاسع بين أولويته وأولوية تنظيم القاعدة المركزي، إذ إن تنظيم الدولة يجعل من القضية السنية والصراع الهوياتي شغله الشاغل على خلاف شبكة القاعدة التي تؤكد عولمة الصراع وأولوية قتال الولايات المتحدة (العدو البعيد!).

وضمن هذا السياق من قراءة أسباب صعود التنظيم وتمده، والعباءة الأيديولوجية التي ارتداها بما يتلاءم مع طبيعة الصراع وتحولاته، فإننا نجد أنفسنا أمام ملاحظتين مهمتين تتعلقان بالمستقبل، في ظل الحرب العالمية التي تقودها الولايات المتحدة على التنظيم في كل من العراق وسورية:

أولاً: يقع الباحثون والسياسيون في خطأ فادح عندما يقرأون صعود تنظيم الدولة الإسلامية إقليمياً بمعزل عن السياق السياسي العام في المنطقة، فعنف التنظيم وسلوكه الحاد ليس نشازاً، وإنما هو جزء من "العنف البنيوي" الراهن، الذي يجتاح العديد من الدول والمجتمعات العربية.

وهذا الفاعل السياسي الجديد لم ينمُ ويصعد إلا في إطار العنف السلطوي، أكان ذا طابع طائفي، مثل العراق وسورية، أو استبدادي، كما هي الحال في مصر والجزائر والدول العربية الأخرى، وفي إطار الأزمت البنيوية التي تعانيتها الدول العربية، والتي تخلق مشاعر شعبية جامحة من التهميش والإقصاء وغياب الأفق السلمي، وظروفاً اقتصادية واجتماعية طاحنة.

خلق آفاق سلمية بديلة كان يمكن للثورات الديمقراطية العربية أن توفّرها، فالطريق أمامها أصبحت متعرجة ومعقدة، وهو ما يجعل سيناريو الفوضى والعنف والتفتت السياسي والجغرافي على أسس بدائية هو السيناريو المتوقع في المدى المنظور، ما دام البديل الديمقراطي الوطني التوافقي ليس ناجزاً بعد في كثير من الدول والمجتمعات العربية، الأمر الذي يعني أننا ندور في حلقة مفرغة من الصراعات والأزمات الداخلية والإقليمية الطاحنة! ■

أن تخلق حالة من الاستقرار لذلك البلد، وأن القاعدة، بنسخها المتعددة، وأخرها تنظيم الدولة الإسلامية (الذي انشق عنها) أصبحت أكثر انتشاراً وحضوراً وقوة، على الرغم من جميع الجهود الأمنية والعسكرية والاقتصادية لضربها وحصارها. إن القضاء على تنظيم الدولة الإسلامية عسكرياً لن يحدث حالة من الاستقرار الإقليمي ولن ينقذ الدولة القطرية العربية، لأن المعطيات الواقعية تؤشر إلى أننا أمام مرحلة انهيار للتوازنات القديمة من دون

المصادر

١ هو عبد الرحمن العلي، مصري الجنسية، يتمتع باحترام وتقدير من جميع الجهاديين في العالم، تلقى علومه الإسلامية في باكستان، وكانت تربطه علاقة وثيقة بالزرقاوي، تخرّج من الجامعة الإسلامية في إسلام آباد، ورابط في أفغانستان حيث أنشأ مركزاً علمياً دعواً في معسكر خلدن، ودرّس في مركز تعليم اللغة العربية في قندهار، ثم في معسكرات المجاهدين في كابل، وتولى التدريس في معسكر الزرقاوي في هيرات، وكان مرشحاً لتولي مسؤولية اللجنة العلمية والشريعة في تنظيم القاعدة. وبحسب المسؤول الإعلامي للقاعدة في العراق، ميسرة الغريب، فإن المهاجر كان معتقلاً في السجون الإيرانية، وقد أفرج عنه وعاد إلى مصر بعد أشهر من قيام الثورة، وله عدد من الكتب منها: "مسائل من فقه الجهاد"، ويُعرف لدى الجهاديين بـ "فقه الدماء"، و"أعلام السنة المنشورة في معالم الطائفة المنصورة"، ويُعتبر مفتي جماعة الزرقاوي. انظر: "بيان حقيقة علاقة البغدادي بأميرنا الزرقاوي"، في الرابط الإلكتروني التالي:

<http://www.sunnti.com/vb/showthread.php?t=15452>

وبحسب المسؤول الإعلامي لجماعة الزرقاوي ميسرة الغريب: "كان شيخنا الزرقاوي رحمه الله يُحب شيخه أبا عبد الله المهاجر - فك الله أسره - ويُجلُّه ويثني عليه ويودُّ لو يأتي إلى العراق، وكانت قرائن الحال تدل أنه لو أتى لأوكل إليه مسؤولية الهيئة الشرعية. وكان شيخنا يحثني على تدريس الطلبة كتاب الشيخ المهاجر أعلام السنة المنشورة في معالم الطائفة المنصورة، وكنا صورناه، وبدأتُ تدريسه للإخوة، هذا فضلاً عن كتاب فقه الدماء الذي كنا ننتظر وصوله إلى الفلوجة وقتها، ولم يصل إلى أن بدأت معركة الفلوجة الثانية، وكان الشيخ ذكر لي أنه درّسه عند الشيخ المهاجر أربع سنوات إن لم تخني ذاكرتي... ثم دارت الأيام ودخل الكتاب إلى العراق بعد أحداث الفلوجة الثانية وطُبعت منه نسخ

كثيرة جداً، تحت اسم 'مسائل من فقه الجهاد'، وهو كتاب جيد قوي، جدير أن يلخص منه ويُدرّس للإخوة المجاهدين". انظر: ميسرة الغريب، "من خفايا التاريخ: الزرقاوي كما عرفته" (مؤسسة الفرقان للإنتاج الإعلامي، الجزء الثاني، ص ٣، في الرابط الإلكتروني التالي:

<http://www.muslim.org/vb/showthread.php?262903-%D9%85%D8%A4%D8%B3%D8%B3%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%81%D8%B1%D9%82%D8%A7%D9%86-%28-%D8%AA%D9%80%D9%80%D9%82%D9%80%D8%AF%D9%85-%29-%D9%85%D9%86-%D8%B3%D9%84%D8%B3%D9%84%D8%A9-%D8%AE%D9%81%D8%A7%D9%8A%D8%A7-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%A7%D8%B1%D9%8A%D8%AE-%D8%A7%D9%84%D8%B2%D8%B1%D9%82%D8%A7%D9%88%D9%8A-%D9%83%D9%85%D8%A7-%D8%B9%D9%80%D9%80%D8%B1%D9%81%D9%80%D8%AA%D9%87-%28-%D8%AC-2-%29>

٢ ينتمي أبو بكر ناجي إلى الجيل الأول من الجهاديين الافتراضيين، ولا يُعرف مَنْ هو في العالم الواقعي، وهذه ظاهرة برزت مع الثورة الاتصالية في شبكة الإنترنت نهاية تسعينيات القرن الماضي، ولا أحد يعرف هوية الجهاديين الواقعية الحقيقية. وقد شهد العالم الافتراضي ظهور موجات من القيادات الجهادية الافتراضية، واشتهر من الموجة الأولى من الجهاديين الافتراضيين التي ظهرت في سنة ٢٠٠٢: أبو بكر ناجي، وأبو عبدة القرشي، ولويس عطية، ومن الموجة الثانية التي ظهرت في سنة ٢٠٠٦: حسين بن محمود، وعطية الله، ومن الموجة الثالثة التي ظهرت في سنة ٢٠٠٩: عبد الرحمن الفقير، ويمان مخضب، وأسد الجهاد.

٣ أبو بكر ناجي، "إدارة التوحش: أخطر مرحلة ستمر بها الأمة"، ص ٤، في الرابط الإلكتروني التالي:
http://www.e-prism.org/images/Idarat_al-Tawahhush_-_Abu_Bakr_Naji.pdf

٤ المصدر نفسه، ص ٧.

٥ المصدر نفسه، ص ١٢.

٦ أبو عبدالله المهاجر (جمع وإعداد)، "مسائل من فقه الجهاد"، ص ٨، في الرابط الإلكتروني التالي:
<http://ia701203.us.archive.org/19/items/kotobjehad/masael.pdf>

٧ يمكن العودة إلى نص الوثائق في الموقع الإلكتروني لمركز مكافحة الإرهاب الأميركي، في الرابط التالي:

<https://www.ctc.usma.edu/posts/letters-from-abbottabad-bin-ladin-sidelined>

وانظر أيضاً تشكيكاً في الرسائل من موقع مقرب من تنظيم الدولة الإسلامية في الرابط الإلكتروني التالي:

http://the-islamic-state.blogspot.com/2013/09/blog-post_7584.html

٨ انظر: محمد أبو رمان، "من السلفية الجهادية إلى أنصار الشريعة: التكيف مع حقبة الثورات الديمقراطية العربية والدور السياسي الجديد"، مجلة "العلوم الاجتماعية" (جامعة الكويت)، المجلد ٤٢، العدد ٢ (٢٠١٤)، ص ٢٣٦-٢٤١.

٩ المصدر نفسه، ص ٢٤١-٢٥١.

- ١٠ أيمن الظواهري، "الواقع بين الألم والأمل"، لقاء صوتي أجرته مؤسسة السحاب، في أيار / مايو ٢٠١٤، ويمكن الوصول إليه في الرابط الإلكتروني التالي:
<https://www.youtube.com/watch?v=BGdGhI8HJE>
- ١١ قام أبو مصعب السوري بشرح أحد أهم الكتب التي تناولت "حرب المستضعفين"، وله تسجيلات صوتية في شرحه، وهو يعتمد عليه بصورة أساسية في كتابه "دعوة المقاومة". وهذا الكتاب هو: روبرت تاير، "حرب المستضعفين: دراسة كلاسيكية في حرب العصابات"، تعليق الشيخ أبي مصعب السوري، "منتديات المنبر الإعلامي الجهادي"، في الرابط الإلكتروني التالي:
<http://alplatformmedia.com/vb/showthread.php?t=20998>
- ١٢ أبو محمد المقدسي، "ليس كمن ترضى بشقّ ابنها"، "منبر التوحيد والجهاد"، في الرابط الإلكتروني التالي:
<http://www.tawhed.ws/r?i=17111301>
- ١٣ أبو قتادة الفلسطيني، "رسالة لأهل الجهاد في الشام"، "شبكة حنين"، في الرابط الإلكتروني التالي:
<http://www.hanein.info/vb/showthread.php?t=335311>
- ١٤ أبو سعد العاملي، "تنبيه الأنام لما في التفرقة من آثام وأهمية التوحيد في دولة الإسلام"، في الرابط الإلكتروني التالي:
https://archive.org/details/bayan_2013
- ١٥ أبو الحسن الأزدي، "موجبات الانضمام للدولة الإسلامية في العراق والشام"، في الرابط الإلكتروني التالي:
<http://www.hanein.info/vb/showthread.php?t=329431>
- ١٦ أبو همام بكر بن عبد العزيز الأثري، "مدّ الأيدي لبيعة البغدادي"، في الرابط الإلكتروني التالي:
<https://archive.org/details/baghdadi-001>
- ١٧ لمزيد من التفصيل عن الرسائل التي أيدت تنظيم الدولة الإسلامية ومعرفة روابطها، انظر الرابط الإلكتروني التالي:
<http://www.hanein.info/vb/showthread.php?t=337513>